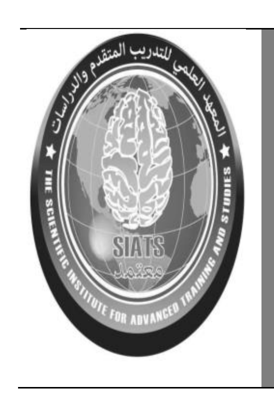


SIATS Journals

Journal of Islamic Studies and Thought for Specialized Researches

(JISTSR)

Journal home page: http://www.siats.co.uk



مجلة الدراسات الإسلامية والفكر للبحوث التخصصية

المجلد3 ، العدد 4، أكتوبر2017م.

e-ISSN: 2289-9065

ATHAR RASAYIL ALNUWR FI BINA' ALWAEY BIALSINN AL'IILHIA'

أثر رسائل النور في بناء الوعي بالسنن الإلهية

الدكتور رشيد كُهُوس

أستاذ ورئيس فريق البحث في السنن الإلهية بكلية أصول الدين بتطوان جامعة عبد المالك السعدي–المغرب

رئيس تحرير مجلة المدونة الصادرة عن مجمع الفقه الإسلامي بالهند

rachid1433@yahoo.com

1439هـ – 2017م



ARTICLE INFO
Article history:
Received 2/7/2017
Received in revised form 3/8/2017
Accepted 5/9/2017
Available online 15/10/2017
Keywords:

ABSTRACT

The series of Rassail El Nour included significant and distinct directives in the awareness of the divine laws and the discovery of the divine Sunan, both at the level of extrapolating history, interacting with the conditions of Islamic civilization at different stages, or at the level of human behavior and movement in society.

But the researcher in the thought of Imam al-Noursi and his efforts in these divine laws and his call to work and deal with them well. This good approach has made him look deeply at the sources of these divine laws: the Holy Quran and the universe.

Reasons to choose a topic:

The most important reasons that led me to work on this subject are the following:

-First - the scarcity of studies on the divine year through the letters of light.

Second, contemporary scholars did not care about Sunni consciousness in al-Noursi thought.

research goals:

This research aims to achieve the following objectives:

-Raising awareness of the importance of divine laws in the advancement of societies.

-Reveal the relationship of the laws of God by commissioning and succession in the land and the establishment of human civilization.

-Reading the messages of light with a social and philosophical logic integrated, to know the Sunni dimension.

-Highlight the efforts of Imam al-Noursi in the service of divine laws.

-Contributing to the definition of intellectual radiation of Imam al-Noursi and his great reform project, which is reflected in the pages of messages of light



- drew attention to the importance of the Islamic intellectual project presented by Imam Badia Zaman al-Noursi.

الملخص

إن كليات رسائل النور تضمنت توجيهات معتبرة ومتميزة في الوعي بالسنن الإلهية واكتشافها وتسخيرها والعمل بمقتضاها، سواء على مستوى استقراء التاريخ، أو التفاعل مع أوضاع حضارة المسلمين في مختلف مراحلها، أو على مستوى سلوك الإنسان وحركته في المجتمع.

بل الناظر في حياة الإمام النورسي ووجهته الإصلاحية يجد توظيفه لهذه السنن الإلهية، وإحسانه التعامل معها، هذا التعامل جعله يستنطق أهم مصادر هذه السنن ألا وهي: الكتاب المسطور (القرآن الكريم) والكتاب المنظور (الكون)، ليكتشف لنا أهم السنن التي تحكم الوجود كله.

أسباب اختيار الموضوع:

إن من أهم الأسباب التي دفعتني للاشتغال بهذا الموضوع ما يلي:

- أولا – ندرة الدراسات المتعلقة بالسنن الإلهية من خلال رسائل النور.
- ثانيا– أن الباحثين المعاصرين لم يلتفتوا إلى الوعي السنني عند بديع الزمان النورسي.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- إبراز أهمية الوعي السنن في النهوض بالمجتمعات.
- الكشف عن علاقة السنن الإلهية بأمانة التكليف والاستخلاف في الأرض وإقامة العمران البشري.
- قراءة رسائل النور بمنطق فلسفي حضاري اجتماعي متكامل، للوقوف على البعد السنني فيها.
- إبراز جهود الإمام النورسي في خدمة السنن الإلهية.
- الوقوف على العقلية الفكرية المتنورة المتعددة المشارب للإمام بديع الزمان من خلال رسائل النور.



- الإسهام في التعريف بالإشعاع الفكري للإمام النورسي ومشروعه الإصلاحي الكبير الذي يتجلى في صفحات رسائل النور
- لفت الأنظار إلى أهمية المشروع الفكري الإسلامي الذي قدمه الإمام بديع الزمان النورسي.

مقدمة

بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أما بعد؛ فإن الله تعالى لم يخلق هذا الوجود عبثًا، وإنما خلقه وأقامه على سنن تدبر أمره، وتسير شأنه، وتضبط كل حركة فيه. ويزخر القرآن الكريم بكثير من الآيات البينات الدالة على أن الحياة الإنسانية مرتبطة بسنن ثابتة؛ بها تنهض الأمم وتسقط، وفي دائرتها تسير المجتمعات ويتحرك التاريخ، كما توجه هذه الآيات الأنظار إلى استنطاق التاريخ والبحث في الآفاق للوقوف عليها. ولم يلتفت إلى فقه السنن التي تحكم شؤون الكون وسلوك الناسِ وحركة المجتمعات إلا فئة قليلة من علماء الأمة تكاد تعد على رؤوس الأصابع، ومن هؤلاء العلماء الفضلاء المفكر الإسلامي التركي، سعيد النورسي الشهير ببديع الزمان نور الدين النورسي المتوفى سنة (1379هـ/ 1960م)-رحمه الله- في رسائله النفيسة الموسومة بـ"رسائل النور".حيث أدرك الإمام سعيد النورسيُّ –رحمه الله- أهمية هذه السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، فوجه اهتمامه إليها؛ ليقرر أن سقوط الحضارات ونهوضها، وتقدم الأمم والمجتمعات وتخلفها، وتداول الازدهار والانحطاط بين الناس إنما يكون وفق السنن الحاكمة لحركة الكون وسير التاريخ وسلوك البشر.

إن كليات رسائل النور تضمنت توجيهات معتبرة ومتميزة في مجال السنن الإلهية واكتشافها وتسخيرها والعمل بمقتضاها، سواء على مستوى استقراء التاريخ، أو التفاعل مع أوضاع حضارة المسلمين في مختلف مراحلها، أو على مستوى سلوك الإنسان وحركته في المجتمع. بل الناظر في حياة الإمام النورسي ووجهته الإصلاحية يجد توظيفه لهذه السنن، وإحسانه التعامل معها، هذا التعامل جعله يستنطق أهم مصادر هذه السنن ألا وهي: الكتاب المسطور (القرآن الكريم) والكتاب المنظور (الكون)، ليكتشف لنا أهم السنن التي تحكم الوجود كله.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- قراءة رسائل النور بمنطق فلسفي حضاري اجتماعي متكامل، للوقوف على البعد السنني فيها.



- إبراز جهود الإمام النورسي في خدمة السنن الإلهية.
- الوقوف على العقلية الفكرية المتنورة المتعددة المشارب للإمام بديع الزمان من خلال رسائل النور.
- الإسهام في التعريف بالإشعاع الفكري للإمام النورسي ومشروعه الإصلاحي الكبير الذي يتجلى في صفحات رسائل النور.

محاور البحث:

تحقيقا للأهداف السابقة سيكون هذا البحث في ثلاثة مباحث رئيسة:

المبحث الأول: السنن الإلهية وأهميتها والآثار المترتبة على إهمالها؛

المبحث الثاني: السنن الإلهية والتفسيرات المادية؛

المبحث الثالث: من سنن التغيير الاجتماعي وإحياء الأمة ؛

المبحث الرابع: من أسباب التخلف الحضاري والتراجع الاجتماعي للأمة.

وسأنطلق لبيان ما سبق من كليات رسائل النور للإمام النورسي ومن بعض الدراسات التي أنجزت عنه وعن مشروعه الفكري التجديدي الإصلاحي.

المبحث الأول

السنن الإلهية وأهميتها والآثار المترتبة على إهمالها

1- مفهوم السنن الإلهية[(1)].

السنن الإلهية هي: إرادة الله في خلقه، وطريقته في تسيير الأمور[(2)]. أو هي: "الإرادة الإلهية التكوينية المتعلقة بقوانين الطبيعة وأسرارها التسخيرية، والعادات الجارية التي تربط بين الأسباب والمسببات"[(3)].

أما الإمام النورسي فقد عرفها بأنها: "القوانين الإلهية الجارية في العالم التي تبين تنظيم الأفعال الإلهية ونظامها، وتُنظّم شؤون الكون.. وهي تجلّ كلي للأمر الإلهي والإرادة الإلهية"[(4)]. ولهذه السنن الإلهية عند الإمام النورسي مرادفات كثيرة منها: الشريعة الفطرية الكبرى، وعادات الله، وقوانين الله ونواميسه، والشريعة الإلهية، والشريعة الكونية، والسنن الكونية، وسنن الله الجارية، وأحكام قوانين الربوبية...

وهذه السنن الإلهية (الشريعة الإلهية) تتجلى في أمرين:



الأمر الأول: في الجانب المادي من الكون وتسمى السنن الكونية أو الأوامر التكوينية. وهي نواميس الله تعالى في تنظيم هذا الكون وعمارته. ومصدر الكشف عنها هو النظر والتدبر فيما خلق الله تعالى في هذا الكتاب المفتوح (الكون)، وما أودع فيه من نواميس وسنن تمكنها من أداء وظيفتها في انسجام تام.

الأمر الثاني: في سلوك الإنسان–باعتباره فردا وجماعة وأمة– وتسمى السنن الاجتماعية أو سنن التاريخ والاجتماع والعمران البشري. وهي النواميس التي تحكم الإنسان في علاقته بهذا الكون وخالقه سبحانه وتعالى. والمصدر الأول والأساس لهذا النوع من السنن هو الوحي –(كتابا وسنة)– وما تضمن من أحكام وتشريعات وقواعد...، أما المصدر الثاني فهو التاريخ؛ أي السير في الأرض –باعتبارها مسرح الحياة البشرية– والنظر في سنن الذين خلوا من قبل؛ إذ بهذا النظر إلى آثارهم تحصل العبرة وتُتقى أسباب مصارهم وهلاكهم واندثارهم.

وفي هذا يقول الإمام النورسي: "والشريعة الإلهية اثنتان:

إحداهما: الشريعة الآتية من صفة الكلام التي تنظم أفعال العباد الاختيارية [سلوك الإنسان].

والثانية: الشريعة الآتية من صفة الإرادة التي تسمى بالأوامر التكوينية والشريعة الفطرية وهي محصلة قوانين عادات الله الجارية في الكون. فكما أن الشريعة الأولى عبارة عن قوانين معقولة، فإن الشريعة الثانية أيضًا عبارة عن مجموع القوانين الاعتبارية، والتي تسمى –خطأ– بالطبيعة فهذه القوانين لا تملك التأثير الحقيقي ولا الإيجاد، اللذين هما من خواص القدرة الالهية"[5]. ومع هذا التقسيم فإن هذه السنن بنوعيها تصدر عن إله واحد وإرادة واحدة، ولا يمكن الفصل بين السنن الكونية والسنن التي تحكم الإنسان، لكون هذا الإنسان جزء من الكون، ولا يمكن أن تعمل السنن الكونية بمعزل عن الإنسان، وقد خلق الله تعالى هذا الكون وسخر ما فيه للإنسان. كما لا يمكن أن تعمل السنن الاجتماعية بمعزل عن الكون، بل السنن الاجتماعية جزء من السنن المبثوثة في هذا الكون. ذلك، وقد حظيت السنن الإلهية عند الإمام النورسي باهتمام كبير، وتجلت في العديد من صفحات كليات رسائل النور بسائر أجزائها وأبوابها. وكان الحظ الأوفر لمبدأ السببية الذي تنبثق منه سائر السنن، وذلك في رده على الماديين والطبيعيين الذين تعاملوا بسلبية مع سنن الأسباب والمسببات. كما يعتبر الإمام النورسي هذه القوانين الإلهية تجليات لأسماء الله الحسنى، وذلك في قوله: "إذ هو الحاكم الأزلي الذي نظّم الكائنات بقوانين سننه، ودساتير قضائه وقَدَره، ونواميس مشيئته وحكمته، وجلوات عنايته ورحمته، وتجليات أسمائه وصفاته. وما القوانين والنواميس إلاّ أسماءٌ لتجلي مجموع العلم والأمر والإرادة على الأنواع"[6].



كما يؤكد الإمام النورسي أهم خصائص السنن الإلهية ألا وهي: التوازن، والاطراد، والانتظام، والنفاذ، في قوله: "إننا نشاهد بأعيننا في هذا الكون أن من عادة الربوبية الجارية في كل آن بالعدالة والحكمة والعناية، حمايةَ الأبرار وتأديب الكذابين الفاسدين، نشاهدها ضمن تصرفاته المنتظمة جل جلالُه"(7). وفي قوله كذلك أثناء حديثه عن مقاصد القرآن: ""لقد راعى الرعاية التامة في الموازنة والاطراد والمطابقة لدساتير الفطرة، والاتحاد في المقاصد والغايات، فحافظ على الميزان"(8). كما يؤكد خصيصتي الثبات والاطراد في قوله: "إن آثار البشر وقوانينه تشيب وتهرم مثله، وتتغير وتتبدّل. إلا أن أحكام القرآن وقوانينه لها من الثبات والرسوخ، بحيث تظهر متانتها أكثر كلما مرت العصور"(9).

2- أهمية السنن الإلهية والآثار المترتبة على إهمالها.

إن دراسة هذه السنن الإلهية وتسخيرها وتوظيفها في الحياة واجب ديني وضرورة شرعية، ذلك بأن الواقع المعيش الذي يحياه المسلمون وتكالب الأمم الغربية عليهم والخطوب التي حلت بديارهم يستدعي العودة إلى الأصول الثابتة والدعائم المتينة التي انطلقت منها أمة الإسلام في نهضتها الأولى؛ فحققت ازدهارا حضاريا وإشعاعا عالميا...

إن السير في الدنيا دون الوقوف على شيء من علم السنن ضرب في متاهة، ومشي في غياهب الظلم بلا دليل يقود، ولا هاد يرشد، ولا صاحب يدل؛ لأنه فَقْدٌ لاستصحاب جزء من المعرفة التي يترتب عليها الإعداد لكل نازلة، أو الإفادة من كل منحة(10). إن المسلمين بصفة عامة لم يكونوا على مستوى الأمر الإلهي: ﴿اقرأ﴾ الذي ربط بين قراءة الكتاب المنظور والكتاب المسطور، "أما إنهم لو فعلوا فبدأوا بالسير في الأرض لمعرفة أحوال الأمم البائدة وأسباب هلاكها، ثم اعتبروا بحال الأمم القائمة وبحثوا عن أسباب عزها وثباتها، لعلموا أنهم أمسوا من أجهل الناس بسنن الله، وأبعدهم عن معرفة أحوال خلق الله، ولرأوا أن غيرهم أكثر منهم سيرا في الأرض، وأشد منهم استنباطا لسنن الاجتماع، وأعرق منهم في الاعتبار بما أصاب الأولين، والاتعاظ بجهل المعاصرين"(11). لكن "ترى شعوب المسلمين يجهلون هذه السنن الإلهية، وما ضاع ملكهم وعزهم إلا بجهلها الذي كان سببا لعدم الاهتداء بها في العمل، وما كان سبب هذا الجهل إلا الإعراض عن القرآن، ودعوى الاستغناء عن هدايته بما كتبه لهم المتكلمون من كتب العقائد المبنية على القواعد الكلامية المبتدعة، وما كتبه الفقهاء من أحكام العبادات والمعاملات المدنية والعقوبات والحرب وما يتعلق بها"(12). إن اعتماد المسلمين على مجرد أنهم مسلمون دون إدراك للسنن الإلهية التي تخضع لها جميع المخلوقات لا يكفي؛ لأن الواجب الديني يفرض عليهم الوعي بسنن الله في حياة الأمم وموتها، وضعفها وقوتها، وبقاء دولها وزوالها، وبسائر السنن التي بثها الله في هذا الوجود، وإحسان التعامل معها وتسخيرها والعمل بمقتضياتها. هذا، وقد دعا الإمام النورسي المسلمين دعوة صريحة إلى



تسخير ما بث الله في الكون من سنن من أجل تحقيق نهضة حضارية رائدة وانبعاث إسلامي جديد، يقول –رحمه الله– مبينا أثر السنن في نهوض الأمم وسقوطها: "فكما أن هناك طاعة وعصيانا تجاه الأوامر الشرعية المعروفة، كذلك هناك طاعة وعصيان تجاه الأوامر التكوينية. وغالبا ما يرى الأول مطيع الشريعة والعاصي لها جزاءه وثوابه في الدار الآخرة. والثاني مطيع السنن الكونية والعاصي لها غالبا ما ينال عقابه وثوابه في الدار الدنيا. فكما أن ثواب الصبر النصر، وجزاء البطالة التقاعس والذل والتسفل، كذلك ثواب السعي الغنى. وثواب الثبات التغلب"(13). ويضيف في موضع آخر: "إن من يشق طريقا في الحياة الاجتماعية ويؤسس حركة، لا يستثمر مساعيه ولن يكون النجاح حليفه في أمور الخير والرقي، ما لم تكن الحركة منسجمة مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون، بل تكون جميع أعماله في سبيل التخريب والشر"(14). يقرر الإمام النورسي في هذا النص العجيب أن أي محاولة للتغيير الاجتماعي تتنكب سنن الله تعالى فمآلها الفشل الذريع...

هكذا يربط الإمام النورسي بين حركة الإنسان نحو التغيير والنهضة الاجتماعية وسنن الله تعالى في الوجود، هذا الربط الذي من شأنه أن يعمق النظر ويرسم المنهاج المستقيم في اكتشاف ما في الكون من سنن ثابتة ومطردة، وربطها بقوانين التشريع الاجتماعي، لتحقيق النهضة الشاملة لحضارة الإسلام في ظل الواقع المعاصر.

يقول النورسي رحمه الله: "إن من أراد التوفيق يلزمه مصافاة مع عادات الله، ومعارفه مع قوانين الفطرة، ومناسبة مع روابط الهيئة الاجتماعية، وإلا أجابته الفطرة بعدم الموفقية جواب إسكات! أما النواميس العامة الجارية فتقذف من يخالفها إلى صحراء العدم"(15). ويقول أيضا مخاطبا ساسة الأمة ورعاتها: "يا أولياء الأمور! إن أردتم التوفيق فاطلبوه في موافقة أعمالكم للسنن الإلهية في الكون –أي قوانين الله– والاّ فلن تحصدوا إلاّ الخذلان والإخفاق"(16).

إن الإمام النورسي يؤكد ويقرر أن الوعي بالسنن الإلهية وتسخيرها والسير على هداها هو المدخل الرئيس والمنطلق الصحيح لنهضة الأمة وسياسة الرعية، داعيا دعاة التغيير إلى الإحاطة بالسنن الإلهية في التغيير والنهوض قبل العمل والإنجاز، قياسا على سنن الله التي تحكم حركة الكون بمفرداته كلها، وتنظمها في ميزان متراص.

فبدون معرفة بسنن الاجتماع ونواميس العمران، وسنن الكون، لا يمكن لحركات النهوض والتغيير أن تستأنف عملا إصلاحيا سديدا، بل ستقذف جهودها إلى صحراء العدم، كما عبر النورسي –رحمه الله– عن ذلك بقوله: "إن من يشق طريقا في الحياة الاجتماعية ويؤسس حركة، لا يستثمر مساعيه ولن يكون النجاح حليفه في أمور الخير والرقي، ما لم تكن الحركة منسجمة مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون، بل تكون جميع أعماله في سبيل التخريب والشر"(17).



وعليه؛ فإن "اكتشاف السنن، والوعي بقوانين حركتها، هو الذي يحقق سيطرة الإنسان عليها، ويجعله قادرا على مغالبتها وتسخيرها في أداء الأمانة التي استخلفه الله للنهوض بها، بينما غفلة الإنسان عن هذه السنن، وغيبة وعيه عن قوانين حركتها، هي التي تجعله ضحية لهذه القوانين التي لا تبديل لها ولا تحويل، حتى ولو حسنت نوايا هذا الإنسان، وعاش غارقا في بحار الأمنيات والأدعية والتوسلات"(18). ومن هذا السرّ الجاري في الكائنات المسمى بـ"سُنّة الله" ومن هذا الدستور العظيم–كما يقول النورسي–، يكون العاطل الكسلان الطريح على فراش الراحة أشقى حالًا وأضيق صدرًا من الساعي المجدّ، ذلك لأن العاطل يكون شاكيًا من عمره، يريد أن يمضي بسرعة في اللهو والمرح. بينما الساعي المجدّ شاكرٌ لله وحامدٌ له، لا يريد أن يمضي عمرَه سدًى. لذا أصبح دستورًا عامًا في الحياة: "المستريح العاطل شاكٍ من عمره والساعي المجدّ شاكرٌ". وذهب مثلاً: "الراحةُ مندمجة في الزحمة، والزحمة مندمجة في الراحة". نعم إذا ما أُمعن النظر في الجمادات فإن السنة الإلهية المذكورة تظهر بوضوح؛ فالجمادات التي لم تتكشف استعداداتُها وباتت ناقصةً من هذه الناحية، تراها تسعى بشدة، وتبذل جهدًا عظيمًا لكي تنبسط وتنتقل من طور "القوة" الكامنة إلى طور "الفعل". وعندها يشاهد عليها ما يشير إلى أن في تلك الوظيفة الفطرية شوقًا، وفي ذلك التحول لذةً، جريًا بدستور سنّة الله، فإن كانت لذلك الجامد حصة في الحياة العامة، فالشوق يعود إليه، وإلاّ فهو يعود إلى الذي يمثل ذلك الجامد ويشرف عليه، بل يمكن أن يقال بناء على هذا السر: إن الماء اللطيف الرقراق ما أن يتسلم أمرًا بالانجماد، حتى يمتثل ذلك الأمر بشدة وشوق إلى حدّ أنه يكسر الحديد ويحطّمه. فإذن عندما تبلّغ البرودة ودرجاتُ الانجماد أمرًا ربانيًا بالتوسع، إلى الماء الموجود داخل كرة حديدٍ مقفلة، فإن الماء يمتثل الأمر بشدة وشوق بحيث يحطّم كرة الحديد تلك، وينجمد.

وعلى هذا فقس جميع ما في الكون من سعي وحركة، ابتداءً من دوران الشموس في أفلاكها وانتهاءً إلى دوران الذرات ودوراتها واهتزازاتها.. فلا تجد أحدًا إلاّ ويجري على قانون القَدَر الإلهي، ويظهر إلى الوجود بالأمر التكويني الصادر من يد القدرة الإلهية والمتضمن العلم الإلهي وأمره وإرادته.. حتى إن كل ذرة، وكل موجود، وكل ذي حياة، إنما هو كالجندي في الجيش، له علاقات متباينة ووظائف مختلفة، وارتباطات متنوعة مع كل دائرة من دوائره. فالذرة الموجودة في عينيك –مثلًا– لها علاقة مع خلايا العين، ومع أعصاب العين في الوجه، ومع الشرايين والأوردة في الجسم، وعلى أساس هذه العلاقات والروابط تُعَيَّنُ لها وظيفة، وعلى ضوئها تنتج فوائد ومصالح وهكذا..



فقس على هذا المنوال كل شيء في الوجود[19]. إذن فكل الموجودات في هذا الكون تسير وفق السنن الإلهية في هذا الوجود ولا تتصادم معها ولا تتنكبها، ولا تخالفها، إلا الإنسان فإنه يتقاعس ويتكاسل ويخلد إلا الأرض ولا ينتبه لذلك حتى تحصده السنة الإلهية فتجعله حصيدا خامدا.

المبحث الثاني

السنن الإلهية والتفسيرات المادية

لقد تنكر الماديون لكل ما له صلة بعالم الغيب، أنكروا وجود الله تعالى، وأنكروا أن يكون له أثر في تدبير شؤون الخَلق، وأنكروا الوحي والنبوة، وأنكروا اليوم الآخر، وبالجملة فقد أنكروا كل ما وراء العالم المحسوس أو عالم الشهادة، وكان من نتائج هذا الإلحاد تخبطهم في تعليل الظواهر الكونية، وتفسير الأحداث الاجتماعية والتاريخية، ويظهر ذلك التخبط في تلك النظريات المختلفة التي خرجوا بها على الناس، وفي كل مرة يحاولون تفسير السنن وفق نظرية جديدة، فنسبوا سنن الله تعالى إلى الطبيعة، فقالوا عنها إنها قوانين طبيعية تكونت عن طريق الصدفة. ثم كانت لوثة التحليل المادي للتاريخ في أواخر القرن التاسع عشر، والتي تعزي الظواهر والأحداث إلى حتميات اقتصادية واجتماعية وتاريخية وحضارية..

لقد نبذ هؤلاء كل ما له صلة بالدين، فكان نتيجة ذلك أن نسبوا سنن الكون إلى غير خالقها، فسموها القوانين الطبيعية[20]. وهنا يرد الإمام النورسي على هؤلاء الملحدين الماديين الطبيعيين وينقض أفكارهم ومزاعمهم؛ ويكشف لهم عن الحقيقة الوجودية لنظام الكون المادي والبشري الذي أسس على سنن إلهية تتسم بالربانية والتوازن والانتظام؛ ويبين لهم أن هذه القوانين التي أقام الله عليها نظام الكون أو الطبيعة غير منفصلة عن الله تعالى موجد الموجودات وخالق سائر المخلوقات، بل هي مدخل لمعرفة الذات الإلهية، ومن ثم معرفة الإنسان لنفسه ووظيفته في الوجود.

إن هذه الآيات الكونية مبثوثة في كتاب الله تعالى، والقرآن يلفت نظر الإنسان إلى ما بثه الله في الكون والحياة من سنن ونواميس التي ترتبط فيها الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج والعلل بالمعلولات، ويتكرر ذلك ويطرد بدقة متناهية وميزان عجيب.. يقول النورسي: "إن اشتقاق القمر ليس حادثة حدثت من تلقاء نفسها بناء على أسباب طبيعية وعن طريق المصادفة! بل أوقعها الخالق الحكيم –رب الشمس والقمر– حدثا خارقا للسنن الكونية، تصديقا لرسالة رسول الحبيب ρ، وإعلانا عن صدق دعوته"[21]. ويقول في موضع آخر: "إن الصانع ذا الجلال وهو القادر على كل شيء هو نفسه خالق الأسباب، وخالق المسببات، وهو الذي يربط المسببات بالأسباب بحكمته سبحانه، وقد عين بإرادته طبيعة الأشياء، وجعلها مرآة عاكسة لتجليات الشريعة الفطرية الكبرى التي فطر عليها الكون، والتي هي قوانين الله



وسننه الجارية التي تخص تنظيم شؤون الكون، وقد أوجد بقدرته وجه الطبيعة التي يقوم عليها عالم الشهادة الخارجي الوجود، ثم خلق الأشياء وأنشأها على تلك الطبيعة ومازج بينهما بتمام الحكمة"[22].ذلك بأن الطبيعة هي شريعة إلهية كبرى أوقعت نظاما دقيقا بين أفعال وعناصر جسد الخليقة وأعضائها المسمى بعالم الشهادة. هذه الشريعة الفطرية هي التي تسمى بـ"سنة الله" و"الطبيعة" وهي محصلة وخلاصة مجموع القوانين الاعتبارية الجارية في الكون[23].

إن الكون إذن في تصور النورسي –وهو تصور قرآني– مبني على سنن وقوانين ونظام بديع... وهذا النظام لا يحتمل العقلُ القولَ بأنه جاء مصادفة أو عبثًا كما تقول نظريات العقل (العلمي) الملحد التي رفضت أن تفسر ظواهر الكون الجزئية على أساس المصادفة أو التقدير ابتداء. ولكن ها نحن نجدها في قضية خلق الكون حين عجزت عن تفسير مبتدأ النشأة والخلق، تنقلب على منهجها الحتمي الصارم، وتقول بالمصادفة في نشأة الكون، فتخون منهجها فيما يرتبط بتفسير بداية الخلق! لا لشيء إلا لأنها لما غفلت عن الله ونسيته وتنكبت سننه في الوجود وقعت في العدمية والتناقض الصارخ. إن القرآن يقرر أن هذا النظام هو أكبر دليل على المنظِّم وهو الله الذي خلق الوجود وقدر فيه الأقدار... من هنا لا تأخذ أسباب العلوم المادية والاجتماعية في ضوء التصور القرآني طابعًا حتميًّا ينبني على الضرورة العقلية، وتنتج عنه المنفعة المادية، وينتهي بالتعاسة البشرية، كلا... بل تأخذ السنن طابعًا حتميًّا عمليًّا، ينبني على الضرورة الشرعية، وضمان الله بثبات السنن بصريح نصوص القرآن، وينتج عنه محتوى إيماني وطمأنينة نفسية ونظام اجتماعي بديع ينسجم مع وظيفة الاستخلاف وغاية العبودية لله في الأرض[24]. ثم يبين الطريقة الصحيحة للتعامل مع الأسباب ومسبَبَاتها فيقول: "إن الله تعالى أودع بمشيئته في الكائنات نظاما يربط الأسباب بالمسببات وألجأ الإنسان بطبيعته ووهمه وخياله إلى أن يراعي ذلك النظام ويرتبط به. وكذلك وجه كل شيء إليه وتنزه عن تأثير الأسباب في ملكه. وكلف الإنسان اعتقادا وإيمانا بأن يراعي تلك الدائرة بوجدانه وروحه ويرتبط بها. ففي الدنيا دائرة الأسباب غالبة على دائرة الاعتقاد؛ وفي الأخرى تتجلى حقائق العقائد غالبة على دائرة الأسباب"[25]. وهكذا فعلى الإنسان أن يأخذ بالأسباب ثم يتوكل بعد ذلك وقبله على رب الأسباب الذي بيده كل شيء. ويرد الإمام النورسي على عبدة الأسباب والطبيعة الذين لا يدركون كنه السنن الإلهية بقوله: "أيّ هذرٍ هذا! وأي وَهْم! أليس الذي يتفوه به بعيدًا كل البعد عن سلامة العقل؟ فالذين يحيلون أمر الخلق والإيجاد في هذا الكون البديع إلى الأسباب وإلى الطبيعة يهوون في جهل مركب سحيق كهذا. وذلك لأن مظاهر الإبداع واضحة على الأسباب والطبيعة نفسها، فهي مخلوقة كسائر المخلوقات. فالذي خلقها –على هذه الصورة البديعة– هو الذي يخلق آثارها ونتائجها أيضا، ويظهرها معًا"[26]. ويضيف قائلا: "نعم ! إن ما يظنونه



أساسًا لكل شيء من جذب ودفع وحركة وقوة وأمثالها، إنما هو ناموس إلهي يمثل قوانين عادات الله، واسم لها. فهذه القوانين مقبولة بشرط ألاّ تنتقل من كونها قاعدة إلى طبيعة فاعلة، ومن شيء ذهني إلى حقيقة خارجية، ومن أمرٍ اعتباري الى حقيقة مشهودة، ومن آلة قياس إلى مؤثر حقيقي"(27). ثم يستنكر على الملاحدة والطبيعيين إنكارهم للسنن والقوانين التي أقام الله عليها نظام الكون وتفسيرهم لها تفسيرا ماديا محضا ويرد عليهم بقوله: "... الذي يبدأ بالبحث والتحري عن السبب "الموجد" ضمن الممكنات والمخلوقات! فيرى قوانين السنن الإلهية، وفهارس الصّنعة الربانية. والتي يطلق عليها خطأ –وخطأ جسيمًا– اسم الطبيعة التي يمكن أن تكون شبيهة بصفحة من كراسة "التغيير والتبديل" لقوانين إجراءات القدرة الإلهية، وبمثابة لوحة "المحو والإثبات" للقدر الإلهي، ولكنه ينبري إلى القول: ما دامت هذه الأشياء مفتقرة إلى علّةٍ موجدةٍ، ولا شيء أعظمُ ارتباطًا بها، من هذه "الكراسة" فإني أخلصُ من ذلك إلى أن هذه "الكراسة" – بما تتضمنه من قوانين المحو والإثبات– هي التي أوجدت الأشياء، ما دام لا يطيبُ لي الاعتقاد والإيمان بالصانع الجليل سبحانه. برغم أن العقل المنزه عن الهوى يرفض كليًا –ضمن منطقه– أن ينسب شؤون الربوبية المطلقة –والتي تقتضي قدرةً مطلقةً– إلى هذه "الكراسة" العمياء الصماء العاجزة. ... أطل برأسك من تحت مستنقع الطبيعة.. لترى الصانع الجليل الذي تشهد له جميع الموجودات، من الذرات إلى المجرات، بألسنة متنوعة، وتشير إليه إشارات مختلفة.. وشاهد تجليات ذلك المصور الجليل الذي شيّد قصر العالم الباذخ، ودوّن خطته وبرنامجه وقوانينه في تلك الكراسة.. وانقذ نفسك من ذلك الهذيان الآثم الرخيص! ... يأتي ملحدٌ إلى هذا العالم الذي هو معسكر مهيب رائع لجنود السلطان الجليل، وهو مسجد عظيم بارع يعظّم فيه ذلك المعبود الأزلي ويقدّس؛ يأتيه وهو يحمل فكرة "الطبيعة" الجاحدة ذلك الجهل المطبق.. فيتصور "القوانين المعنوية" التي يشاهد آثارها في ربط أنظمة الكون البديع، والنابعة من "الحكمة" البالغة للبارئ المصور سبحانه، يتصورها كأنها قوانين مادية، فيتعامل معها في أبحاثه كما يتعامل مع المواد، والأشياء الجامدة.. ويتخيل أحكام قوانين الربوبية التي هي قوانين اعتبارية ودساتير الشريعة الفطرية الكونية للمعبود الأزلي، والتي هي بمجموعها معنوية بحتة، وليس لها وجود سوى وجود علمي، يتخيلها وكأنها موجودات خارجية ومواد مادية.. ويقيم تلك القوانين الصادرة من العلم الإلهي والكلام الرباني التي لها وجود علمي فقط مقام القدرة الإلهية، ويملّكها الخلق والإيجاد، ويطلق عليها اسم "الطبيعة"، متصورًا القوة التي هي تجلٍ من تجليات القدرة الربانية، أنها صاحب قدرة فاعلة، وقديرًا مستقلًا بذاته. أفبعد هذا جهالة وغباء!"(28). ومن هنا فإن على الإنسان أن يرتبط بخالق الأسباب ويتعلق به لا أن ينبهر بالأسباب والمسببات وينسى الخالق الذي أوجد هذه الطبيعة ونظم شؤونها. يقول النورسي: "إن الصانع ذا الجلال وهو



القادر على كل شيء، هو نفسه خالق الأسباب، وخالق المسبّبات، وهو الذي يربط المسببات بالأسباب بحكمته سبحانه، وقد عين بإرادته طبيعة الأشياء، وجعلها مرآة عاكسة لتجليات الشريعة الفطرية الكبرى التي فطر عليها الكون، والتي هي قوانين الله وسننه الجارية التي تخص تنظيم شؤون الكون، وقد أوجد بقدرته وجه "الطبيعة" التي يقوم عليها عالم الشهادة الخارجي الوجود، ثم خلق الأشياء وأنشأها على تلك الطبيعة ومازج بينهما بتمام الحكمة"[29]. ثم يرد على المتكلمين الذين عجزوا عن فهم نظام السببية بقوله: "فمن هذا السر يتبين: أن علماء الكلام، وإن تتلمذوا على القرآن الكريم وألّفوا ألوف الكتب –بعضها عشرات المجلدات– إلاّ أنهم لترجيحهم العقل على النقل كالمعتزلة، عجزوا عن أن يوضحوا ما تفيده عشرُ آيات من القرآن الكريم وتثبته إثباتا قاطعًا بما يورث القناعة والاطمئنان، ذلك لأنهم يحفرون عيونًا في سفوح جبال بعيدة ليأتوا منها بالماء إلى أقصى العالم بوساطة أنابيب، أي بسلسلة الأسباب، ثم يقطعون تلك السلسلة هناك، فيثبتون وجود واجب الوجود والمعرفة الإلهية التي هي كالماء الباعث على الحياة! أما الآيات الكريمة فكل واحدة منها كعصا موسى تستطيع أن تفجّر الماء أينما ضربت، وتفتح من كل شيء نافذةً تدل على الصانع"[30]. ويضيف قائلا: "ولا تظنّن أن التوكل هو رفض الأسباب وردّها كليا، وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب هي حُجب بيد القدرة الإلهية، ينبغي مراعاتها ومداراتها، أما التشبّث بها أو الأخذ بها فهو نوع من الدعاء الفعليّ، فطلب المسبَّبات إذن وترقب النتائج لا يكون إلا من الحقّ سبحانه وتعالى، وأن المنة والحمد والثناء لا ترجع إلا إليه وحده"[31]. تلك إذن هي السنن الإلهية في الكون والحياة –عند النورسي– التي لا تتحول ولا تتبدل ولا تحيد ولا تميل ولا تحابي أحدا.

المبحث الثالث

من سنن تغيير المجتمع وإحياء الأمة

إن امتلاك الأدوات التي تعالج حالة الأمة وتنهض بالمجتمع وتكون قادرة على ترميم الآثار أو التخفيف ما أمكن من الآثار السلبية، واكتشاف عوامل الحل الكامنة في الأزمة نفسها تتطلب دراسات وتخصصات معرفية متنوعة، وخبرات متراكمة عن سيرورة الحياة، والقدرة على تدبر معرفة الوحي ومسيرة التاريخ التي تمنح ملكة التدبير وإدارة الأزمة واكتشاف ما تكنه من فرص ونوافذ تبصّر بالحل، ذلك بأن كل أزمة تحمل في داخلها بذور الحل، وأن اليسر قرين العسر.

ولا شك أن مواطن الخير التي تلازم الأزمة والتي تشكل نقاط الانطلاق والخروج من نفق الأزمة، تتطلب فقه النازلة أو فقه الأزمة، الفقه بمعناه الشامل العام الذي يعني الاستيعاب والإحاطة بالأسباب والنتائج ووضع أوعية لحركة الأمة أثناء الأزمة لا تقتصر على التخفيف من آثار الأزمة، وإنما تحوّلِ الأزمة إلى حل، والنقمة إلى نعمة، تُبْصر مواطن الخير،



وتكتشف بواطن الأزمة وما تتضمن من ملامح التصويب، ورؤية الحل. فالأزمة تحمل في داخلها سبب الخروج، والمنح من لوازم المحن، وسنن الله تعالى السارية في العالم هي التي تشكل أمل الخروج وعدة الصمود وآلية الإقدام على النظر والتفكير واكتشاف الخلل؛ على الهداية إلى الحل الذي يشكل المخرج. إن الإيمان بأن مع العسر يسرا، وأن العاقبة للمتقين، وأن الأرض لله يرثها أهل الصلاح، وأن سنن الله ونواميسه في هذا الكون والحياة ثابتة ومطردة، والإيمان بأن الله بارئ الكون صاحب القدرة المطلقة على الهداية إلى الحل، هو الذي يشكل الرافعة الحقيقية للثبات والاحتفاظ بالقدرة على النظر ورؤية المخارج ويؤهل للنظر الهادئ، ويحول دون السقوط والانكسار، ويؤدي إلى تجاوز العقبات ومواجهة التحديات.. (32). وعلى هذا الأساس فإن "رسم المعادلة الرياضية للتاريخ الإسلامي وما بها من صعود ونزول يحدثنا عن حقيقة مهمة مفادها أن الإسلام كلما تعرض لنكسة تعصف به في مرحلة ما، أدى ذلك إلى زيادة صلابته وقوته فيعود إلى مسرح الأحداث أكثر قوة ومنعة في المرحلة اللاحقة..." (33). لأن الله تعالى يهيئ للأمة في كل مرحلة من مراحل التاريخ من يأخذ بيدها إلى شاطئ النجاة، ويبين لها سنن الله في النهوض والإحياء. وهكذا أشرقت شمس النورسي في تركيا، في زمن عصيب ولحظة حرجة تموج بالملحدين والمفسدين، وتعصف بالأمة رياح التغريب والإلحاد والخذلان... ليبين للأمة أسباب ركودها وسقوطها وتراجعها، ويأخذ بيدها إلى الأمل والمستقبل المشرق في ظل الإسلام وقيمه وأخلاقه... إن الإمام النورسي خبر الأزمة وعاشها وعاش ما مرت به الأمة المسلمة من أزمات وتحولات اجتماعية جذرية، بل كان مستغرقا في قراءة الكتابين المنشور والمسطور، ومتمكنا من فقه السنن الإلهية؛ فاهتدى إلى سنن نهضة الأمة وإحيائها وتحقيق خيريتها وشهودها الحضاري. إن الإمام النورسي على يقين من اطراد سنن الله في نهوض الأمم وإحيائها، ويتجلى ذلك في قوله: "أعلن بلا تردد أن الذي دفعني وشجعني إلى مبارزة أفكار العصور الخوالي والتصدي للخيالات والأوهام التي تقوت واحتشدت منذ مئات السنين، إنما هو اعتقاد ويقيني بأن الحق سينمو نمو البذرة النابتة وإن تسترت تحت التراب، وأن أهله سينتصرون وإن كانوا قلة وضعفاء بظلم الأحوال. واعتقادي أن حقيقة الإسلام هي التي تسود قارات العالم وتستولي عليها. نعم إن الإسلام هو الذي سيعتلي عرش الحقائق والمعارف فلا يكشفها ولا يفتحها إلا الإسلام... الأمارات تبدو هكذا"(34). إن الحق سينتصر مهما طال الزمان، ومهما كان أتباعه في قلة واستضعاف، لكن لابد لهذا النصر والنهوض من شروط، أهمها ما يأتي:

1– الإيمان.



إن الخلاص الوحيد للبشرية من كل أمراضها وأزماتها، إنما يكمن في الإيمان، والانقياد لله جل وعلا؛ ذلك بأن الحكمة من "مجيء الإنسان إلى هذه الدنيا والغاية منه، هي: معرفة خالق الكون سبحانه، والإيمان به والقيام بعبادته، كما أن وظيفة فطرته وفريضة ذمته، هي: معرفة الله والإيمان به"[35].

إن أعلى مرتبة للإنسانية وأفضل مقام للبشرية هو معرفة الله والإيمان به... فمن عرف الله حق المعرفة وملأ قلبه من نور محبته سيكون أهلا لسعادة لا تنتهي ولنعمة لا تنضب ولأنوار وأسرار لا تنفذ وسينالها إما فعلا وواقعا أو استعدادا وقابلية[36].

إن قيمة الإيمان عُدة الأمة المسلمة وذخرها، وهي القيمة الأولى في بناء التغيير الاجتماعي والنهوض الحضاري وإحياء الأمة. لذلك نجد الإمام النورسي يتحسر على عصره الذي سادت فيه المادة وغاب الإيمان، يقول: "إن هذا العصر العجيب الذي أثقل كاهل الإنسان بالحياة الدنيوية، بما كثر عليه من متطلبات الحياة، وضيق عليه مواردها، وحوّل حاجاته غير الضرورية إلى ضرورية، بما ابتلاه بتقليد الناس بعضهم بعضا، ومن التمسك بعبارات مستحكمة فيهم، حتى جعل الحياة والمعاش هي الغاية القصوى والمقصد الأعظم للإنسان في كل وقت.

فهذا العصر العجيب أسدل بهذه الأمور حجابا دون الحياة الدينية، والأخروية والأبدية، أو في الأقل جعلها أمرا ثانويا أو ثالثيا بالنسبة له"[37]. يقول الدكتور محمد الروكي: -إن- "العلم القرآني الرباني يدعو بطبيعته إلى الإيمان، ويصقل فكر صاحبه ويعرفه بالله جل جلاله، فينبع من هذه المعرفة إيمان صادق يشعّ نوره في القلب، ويسري تياره إلى العقل... والإنسان في نظر النورسي مهيأ -بما أودعه الخالق فيه من خصائص ومقومات- لتلقي هذا العلم، والانخراط في سلكه، والاندراج في مجرته، والاستجابة إلى ما يدعو إليه من الإيمان... فهو يقرر أن العلة الكبرى لمجيء الإنسان إلى هذا العالم هي العلم المعرّف بالله تعالى، المشعر بالعجز والافتقار إليه جل وعلا..."[38].

فبالإيمان يصبح الإنسان إنسانًا حقًا، ويظهر أنه في (أحسن تقويم) فيصير ببركته لائقًا للأمانة الكبرى، وخليفة أمينا على الأرض، ودعامة رئيسة في صرح التغيير والبناء[39]. ومن ثم فإن "الإنسان يسمو بنور الإيمان إلى أعلى عليين فيكتسب بذلك قيمةً تجعلُه لائقًا بالجنة، بينما يتردّى بظلمةِ الكفر إلى أسفل سافلين فيكون في وضعٍ يؤهّلُه لنار جهنم، ذلك لأنّ الإيمان يربطُ الإنسان بصانعهِ الجليل، ويربطه بوثاق شديد ونسبةٍ إليه، فالإيمان إنما هو انتسابٌ؛ لذا يكتسب الإنسان بالإيمان قيمة سامية من حيث تجلّي الصنعة الإلهية فيه، وظهورِ آيات نقوشِ الأسماء الربانية على صفحةِ وجوده، أما الكفرُ فيقطع تلك النسبةَ وذلك الانتساب، وتغشى ظلمته الصنعة الربانية وتطمس على معالمها، فَتنقُص قيمة



الإنسان حيث تنحصر في مادّته فحسب؛ وقيمةُ المادة لا يُعتدّ بها فهي في حكم المعدوم، لكونها فانية، زائلة، وحياتها حياة حيوانية مؤقتة"(40).

وعلاوة على ذلك فإن المقصد الأساس لرسائل النور هو "إنقاذ الإيمان" لكونه المدخل الرئيس إلى التغيير والنهوض والإحياء والتجديد.

2–التأسي بسيد الوجود ρ.

يعتبر بديع الزمان سيدنا رسول الله ρ الأنموذج المطلق الكامل والمثل الأعلى الذي تهتدي به الإنسانية في علاج مشكلاتها، وتقويم سلوكها وترشيد حركتها ونشاطها في الأرض. فهو القدوة الحسنة والأسوة المثلى في صناعة التغيير الاجتماعي والنهوض الحضاري، والمثال المقتدى به في بناء العمران وإحياء الأمة، بسنته الشريفة تعرف سنن النصر، وتكشف أسباب الضعف والوهن، وتتعرف الأمة المنهاج الصحيح المعوّل عليه في قيادة الإنسانية إلى شاطئ الأمان، وتحقيق السلم والسلام العالمي، والفوز والنجاة في الدنيا والآخرة.. يقول رحمه الله مؤكدا قيادة النبي ρ للكون، والحياة، والأنبياء، وجميع المخلوقات: "إن أعظم آية في كتاب الكون الكبير، وأعظم اسم في ذلك، القرآن الكريم، وبذرة شجرة الكون، وأنور ثمارها، وشمس قصر هذا العالم، والبذر المنور لعالم الإسلام، والدال على سلطان ربوبية الله، والكشاف الحكيم للغز الكائنات، هو سيدنا محمد الأمين عليه أفضل الصلاة والسلام الذي ضم الأنبياء جميعا تحت جناح الرسالة، وحمى العالم الإسلامي تحت جناح الإسلام، فحلق بهما في طبقات الحقيقة متقدما موكب جميع الأنبياء والمرسلين، وجميع الأولياء والصديقين"(41).

ويقول أيضا: "إن ماهية الكون وقيمته ومزاياه تتحقق بالنور الذي أتى به محمد –ρ– وبه تُعلم وظائف ما فيه من موجودات ونتائجها ومهماتها وقيمتها، وبه يكون الكون بأسره عبارة عن مكاتيب إلهية بليغة، وقرآن رباني مجسّم، ومعرض آثار سبحانية مهيب"(42).

3– التحلي بأخلاق الإسلام سلوكًا ومعاملة.

لقد جاءت رسائل النور تحمل لواء أخلاق الإسلام، وتصوغ قيمه في فقراتها الناصعة، وتترجم للإنسان مبادئ الإسلام ومثله العليا في لغة حية وأسلوب محرك مؤثر.

ذلك بأن أساس رسائل النور الشريعة الغراء، تلك الشريعة التي كلها مكارم وفضائل، والتحلي بها إنما يكون بتطبيق هذه الشريعة التي هي بمنزلة الشجرة، وثمراتها المكارم والفضائل، وتطبيقها مأتاه؛ العلم بها، وفي غياب العلم بها يمتنع تطبيقها



على الوجه الصحيح المرضي، وعند ذلك تحل الرذائل محل الفضائل، والنقائص محل الكمالات، والشقاوة محل السعادة... يقول النورسي وهو يقرر ذلك: "أجل، إنه لا سعادة لأمة الإسلام إلا بتحقيق حقائق الإسلام، وإلا فلا، ولا يمكن أن تذوق الأمة السعادة في الدنيا، أو تعيش حياة اجتماعية فاضلة إلا بتطبيق الشريعة الإسلامية، وإلا فلا عدالة قطعًا ولا أمان مطلقًا؛ إذ تتغلب عندئذ الأخلاق الفاسدة والصفات الذميمة، ويبقى الأمر معلقًا بيدي الكاذبين والمرائين"[43].

ويضيف قائلا: "أما الذين هم في مسار النبوة، فقد حكموا حكمًا ملؤه العبودية الخالصة لله وحده، وقضوا بأن الغاية القصوى للإنسانية، والوظيفة الأساس للبشرية، هي التخلق بالأخلاق الإلهية. أي التحلي بالسجايا السامية، والخصال الحميدة التي يأمر بها الله سبحانه وتعالى، وأن يعلم الإنسان عجزه فيلتجئ إلى قدرته تعالى، ويرى ضعفه فيحتمي بقوته تعالى، ويلمس نقصه فيسبّح ويقدس كماله تعالى"[44].

إن للأخلاق أهمية بالغة في النهوض والتغيير؛ بل إن الأخلاق هي جوهر رسالات السماء على الإطلاق؛ وإن من أهم مقاصد البعثة النبوية إتمام صالح الأخلاق ومكارمها وبناء صرحها ودعامتها، وإشاعة روحها في نفوس الأفراد والأسر والمجتمعات، والعمل على تقويمها.. عن أبي هريرة τ قال: قال رسول الله ρ: «إنما بُعِثت لأتمِّم صالح الأخلاق»[45]، وفي وراية: «مكارم الأخلاق»[46].

بل إن الهدف الأساس من كلِّ رسالات السماء هدف أخلاقي.. وبقاء الأمم واستمرارها مرتبط بأخلاقها، إن صلحت بقيت وعزت واستمرت، وإن فسدت فنيت وذلت وذهبت.. وإذا أصيبت أمة في أخلاقها فنبئها عن قرب زوالها!

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فالأمم تضمحل وتندثر إذا ما انعدمت فيها الأخلاق وتدهورت فيها القيم والمثل العليا؛ ولذلك نجد الإمام النورسي –رحمه الله– يحض في مواطن عديدة من رسائل النور على التحلي بمكارم الأخلاق – من إخلاص وصدق ورحمة وأخوة ومحبة وحياء...–؛ لكونها أساس كل نهضة وتغيير وإصلاح اجتماعي.

4– الإخلاص.

إن الإخلاص يعني قصدَ وجه الله –عز وجل– بأيِّ عمل، وهو ما سعت إلى تحقيقه رسائل النور؛ إذ يعتبر الإمام النورسي هذا النوع من الإخلاص أكبر قوة في النجاح والفلاح، وقد ألف رسالة بهذا الخصوص، وتظهر عنايته الفائقة به من الكلمة التي وضعها في أول رسالة الإخلاص التي حثّ فيها على "إعادة قراءة هذه الرسالة كل خمسة عشر يوما".



يقول رحمه الله: "فما دام في الإخلاص أنوار مشعة، وقوى رصينة كثيرة أمثال هذه الخواص.. وما دام الإحسان الإلهي قد ألقى على كاهلنا مهمة مقدسة ثقيلة، وخدمة عامة جليلة، تلك هي وظيفة الإيمان وخدمة القرآن.. ونحن في غاية القلة والضعف والفقر، ونواجه أعداء ألدّاء ومضايقات شديدة، وتحيط بنا البدع والضلالات التي تصول وتجول في هذا العصر العصيب.. فلا مناص لنا إلاّ بذل كل ما في وسعنا من جهد وطاقة كي نظفر بالإخلاص.. فنحن مضطرون إليه، بل مكلفون به تكليفًا، وأحوج ما نكون إلى ترسيخ سر الإخلاص في ذواتنا، إذ لو لم نفز به لضاع منا بعض ما كسبناه... ثم نحاسب عليها حسابًا عسيرًا، حيث نكون ممن يشملهم النهي الإلهي وتهديده الشديد في قوله تعالى: ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾(البقرة:41) بما أخللنا بالإخلاص فأفسدنا السعادة الأبدية، لأجل مطامع دنيوية دنيئة، مقيتة، مضرة، مكدرة، لا طائل من ورائها ولا فائدة، إرضاء لمنافع شخصية جزئية تافهة، أمثال الإعجاب بالنفس والرياء، ونكون أيضا من المتجاوزين حقوق إخواننا... ومن الذين أساءوا الأدب فلم يقدروا قدسية الحقائق الإيمانية وسموها حق قدرها"[(47)].

هكذا يوصي الإمام بالتحقق والتخلق والتحلي بقيمة الإخلاص الذي يخلص الإنسان من الأحاسيس القذرة مثل: الرياء وحب الظهور والحسد والحرص والطمع، ويجعله فردا صالحا في المجتمع، ودعامة قوية في صرح بنائه.

ويقول في موضع آخر متحدثا عن قوة الإخلاص وتعاضد المخلصين بينهم وآثار كل ذلك على الأمة برمتها: "فإنه بالإخلاص والتساند الحقيقي يستطيع ثلاثة أشخاص أن يفيدوا أمتهم فائدة مائة شخص"[(48)].

إذن فالإخلاص دعامة رئيسة في التغيير والنهوض.

5- بناء الأسرة على أسس ربانية.

إن من أهم الخطوات الكبرى -كما يرى الإمام النورسي- في نهضة الأمة وإحيائها وتغيير واقعها، بناء الأسرة بناء إسلاميا قائما على أسس ربانية من المحبة والمودة والسكينة والرحمة، تشمل كافة الأسرة وتلقي بظلالها على المجتمع برمته، لأن الأسرة -في فكر النورسي- هي العمود الفقري للمجتمع وأساسه الأول، بها يستقر ويستمر ويزدهر، وبها يتراجع ويتخلف ويركد.

ولذلك فإن العلاج الطبيعي المؤدي إلى الاستقرار في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة -كما يرى النورسي-، هو إحلال الإيمان بالله في تلك الأسرة حتى يسري نوره في أرجائها فيستضيء به أهلها.



ذلك بأن الإيمان يوطد علاقة المحبة والمودة والرحمة بين أفراد الأسرة الواحدة، مما يحق لها السلامة والطمأنينة والسكينة في الدنيا، وتمتد إلى نيل الحظوة بالنعيم المقيم في جنة النعيم. وفي هذا يقول الإمام النورسي: "الحياة العائلية هي مركز تجمع المجتمعات، وبيت كل إنسان هو دنياه الصغيرة، بل جنته المصغرة. فإن لم يكن الإيمان الصادق حاكما ومهيمنا على البيت أفضى ذلك إلى اضطراب الأفراد والعائلة اضطرابا شديدا، وعذابا أليما في علاقة بعضهم ببعض حسب درجات رأفته ومحبته لهم؛ فتتحول تلك الجنة الى جحيم لا يطاق (...) ولكن ما إن يحل الإيمان في ذلك البيت حتى ينور أرجاءه مباشرة، ويستضيء؛ لأن علاقة القربى والرأفة والمحبة التي تربطهم لا تقاس عندئذ ضمن زمن قصير جدا، بل تقاس على وفق علاقات تمتد إلى خلودهم وبقائهم في دار الآخرة والسعادة الأبدية، فيقوم كل فرد بعد ذلك باحترام خالص تجاه الآخرين، ويوليهم محبة صافية، ويظهر رأفة صادقة"(**49**).

هكذا أولى الإمام بديع الزمان الأسرة أيما اهتمام، وحظيت عنده بعناية فائقة واهتمام بالغ؛ زوجًا وزوجة وأولادًا وآباءً، ودعا إلى الحفاظ عليها، فهي الخلية الأولى في المجتمع الصالح والأمة الشاهدة.

6- إحياء القيم الروحية.

يعتقد الإمام النورسي أن التغيير الشامل في الحياة الإسلامية والنهوض الحضاري وإحياء الأمة، لابد أن يبدأ من البنى التحتية؛ المعنوية منها والمادية، وليس بوصفات مؤقتة لملء الثغرات الخطيرة في البنيان الفوقي، أي إن التجديد يجب أن يدخل في الخلايا العميقة حتى تسترجع الأمة عافيتها. فاللادينيون ما تمكنوا من المجتمع التركي إلا من خلال فراغ داخلي في الأعماق. يظهر ذلك في ضعف الوازع الديني في النفوس، وانحراف العقل وخواء الروح واضطراب الأحوال والهزائم النفسية وتدهور القيم.

وكان النورسي على يقين تام أن إصلاح الأعماق سيؤدي إلى وحدة العقيدة ووحدة الأفكار، ووحدة الصف ووحدة القلب، ويقظة العقل، واستقرار الأحوال، وهو الذي سيوقظ المسلمين أمام الحضارة الغربية التي أتتهم بعقيدة جديدة وأفكار جديدة.

وهذا المنهج هو الكفيل بإخراج المسلمين من المنظومة الإلحادية المادية إلى المنظومة الإيمانية الإسلامية بمعناها الشامل، وهو منهاج الإسلام وطريقه، وهو منهاج وطريق مستقل عن الوجود والحياة، يختلف اختلافا جذريا عن مناهج المادية والروحية الكنسية(50).

7- العدالة الاجتماعية.



إن العدل نقيض الجور ويكون بإعطاء كل ذي حق حقه، وهو أساس التغيير، وإن "الظلم مؤذن بخراب العمران"[51].

يقول بديع الزمان: "أيها الإنسان المسرف الظالم الوسخ! اعلم أن الاقتصاد والطهر والعدالة سنن إلهية جارية في الكون، ودساتير إلهية شاملة، تدور رحى الموجودات عليها، لا يفلت منها شيء إلا أنت أيها الشقي. وأنت بمخالفتك الموجودات كلها في سيرها وفق هذه السنن الشاملة، تلقى النفرة منها والغضب عليك، وأنت تستحقها.. فعلام تستند وتثير غضب الموجودات كلها عليك، فتقترف الظلم والإسراف، ولا تكترث للموازنة والنظافة؟!

وإن العدالة العامة الجارية في الكون النابعة من التجلي الأعظم لاسم "العدل" إنما تدير موازنة عموم الأشياء، وتأمر البشرية بإقامة العدل.

وإن ذكر الميزان أربع مرات في سورة "الرحمن" إشارة إلى أربعة أنواع من الموازين في أربع مراتب، وبيان لأهمية الميزان البالغة، ولقيمته العظمى في الكون، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 7–9].

فاعلم أن (العدالة، والاقتصاد، والطهر) التي هي من حقائق القرآن ودساتير الإسلام، ما أشدها إيغالًا في أعماق الحياة الاجتماعية، وما أشدها عراقة وأصالة. وأدرك من هذا مدى قوة ارتباط أحكام القرآن بالكون، وكيف أنها مدت جذورًا عميقة في أغوار الكون؛ فأحاطته بعرى وثيقة لا انفصام لها. ثم افهم منها أن إفساد تلك الحقائق ممتنع كامتناع إفساد نظام الكون والإخلال به وتشويه صورته"[52].

8–التدرج في التغيير والنهوض.

إن التدرج في كل شيء سنة إلهية مقررة في الشريعة الإسلامية بصورة لاحبة، وفي المنهاج النبوي أمثلة كثيرة...

ذلك بأن سيدنا رسول الله ρ مكث ثلاثة عشرة عاما في مكة يدعو الناس إلى الحق وإلى صراط مستقيم. وسلك سنة التدرج، فكانت الدعوة سـرا ثم جهرا ثم دعوة القبائل ثم الهجرة إلى الطائف ثم إلى الحبشـة ثم إلى المدينة وإقامة الدولة المسلمة التي تحمي الدعوة وتخدمها.

فالتدرج سـنة في الآفاق والأنفس وفي الخلق والأمر، فالشـريعة الإسـلامية الغراء نزلت بتدرج، وخروج المسـلمين من جاهلية لإسلام بتدرج، وتميزوا عن مظاهر الجاهلية ومجتمعها وقطعوا حبالها بتدرج، وبعد الهجرة إلى المدينة أقاموا مجتمعا أخويا وعمرانا إسلاميا بتدرج.



وبناء على ذلك؛ فإن الذين يحسبون أن النصر والتمكين والفتح المبين يمكن أن يتحقق بين عشية وضحاها، ويريدون تغيير واقع أمة الإسلام في طرفة عين، دون النظر في المقدمات والنتائج، ودون فهم للظروف المحيطة بهذا الواقع، والحياة العامة التي تعيشـــها الأمة، ودون أخذ بالأســـباب وإعداد جيد للمقدمات، فإنهم يبنون على غير أســـاس. إن مراعاة التدرج سمة لازمة للتربية النبوية للصـــحابة وتغيير ما بأنفســـهم، لأن تغيير الأنفس الأمارة بالســـوء وغســـلها وتزكيتها وتطهيرها وتهذيبها حتى يزول ما علق بها من شـــرك وجبروت وآفات ليس بالخطب الهين، كما أن ما تجذرت عليه من مألوفاتها لا يمكن إزالتها في وقت وجيز، بل الأمر يحتاج إلى تدرج ومراحل عديدة.

هذا فضلا عن أن التغيير يقوم بمعالجة أشخاص لهم ماض، وبيئة اجتماعية مفتونة، واستعدادات. هذه المعالجة تريد من المربي أن يتدرج في التغيير، وتريد منه حلما كثيرا وتؤدة، وصبرا طويلا، وتنويعا في الوسائل والأساليب، حتى تنضج الثمرة، ويشتد عود الغرس ويستوي على سوقه.

والمتتبع لكليات السيرة النبوية وجزئياتها في مجال تغيير الأنفس يرى هذا المبدأ جليا وواضحا في المنهاج النبوي. ومن الأمثلة على ذلك ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ρ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتي قوما أهل كتاب، فإذا جئتهم، فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»[53].

وفي هذا الحديث توجيه وإرشاد من النبي ρ للمربين بالتدرج والبدء بالأهم فالمهم. وهكذا كان النبي ρ فلم يرب الناس في لحظة واحدة، لكنه تدرج معهم في التربية، وصبر على ذلك حتى تحقق المطلوب وبلغ المقصود.

وفي ضوء ما تقدم فقد كان الإمام النورسي ملازما للاتساء بسيد الخلق سيدنا محمد ρ في التربية والبناء والتغيير. لذلك كان يؤمن بالنظام، ويبتعد عن الفوضى، ويؤمن بالتدرج ولا يعتقد بـــــالطفرة. فالنظام والتدرج هما أساس الوجود كله، وأي خروج عليهما يعني إدخال الفساد عليه، وهو خروج واضح على تعاليم القرآن الكريم، والسنة النبوية، والقرآن هو الكون المقروء، والسنّة هي الكون المطبق في الحياة العملية.

والنورسي ممن يعتقد في تغيير المجتمع الإسلامي عن طريق تدريجي؛ فيؤكد إصلاح الفرد، ثم إصلاح المجتمع، فإصلاح الشعب، وكل ذلك حسب الإيمان الإسلامي، والشريعة الإسلامية.



وفي ضوء ذلك، فإن الإمام النورسي يدعو إلى تغيير اجتماعي منظم، يتمسك بقانون التطور الفطري التدريجي، وينطلق من القاعدة، ويصعد إلى القمة، لا العكس؛ لأن العكس سيؤدي إلى زعزعة الحياة الاجتماعية، ويحصل منه شر مستطير، وتخريب كبير. يبدأ تغييره بالتدريج بإيمان الإنسان، ثم تربيته، ثم شريعته. ولهذا تدرج في دعوته الإصلاحية من الفرد؛ عاملًا، وفلاحًا، وطالبًا، وعالما، ورجل إدارة وسياسة، يغرس في نفوسهم العقيدة والإيمان والأخلاق ومبادئ الإسلام وفضائله، ثم ينتقل إلى البيت؛ زوجًا وزوجة وأولادًا وأسرة، ثم إلى المجتمع بكل ما فيه من شرائح وطبقات وفئات، ثم إلى الأمة الإسلامية.

إذن فلا بدّ أن يكون قانون التغيّر في حياة الإنسان هو التغيّر التدريجي، حتى لا يختلّ توازن الحياة، فيؤدي إلى نتائج عكسية[54].

9-الأخذ بما عند الآخر من التكنولوجيا الحديثة والأسباب المادية.

أكد النورسي الأخذ بالأسباب الصناعية، والحصول على العلوم والتكنولوجيا الحديثة، وقال إن الاختراعات العلمية الحديثة إنما تؤيد الدين الإسلامي. ولكنه لم يرد العلوم الحديثة على حساب الإسلام، فهو يقول إن «ضياء القلب هو العلوم الدينية ونور العقل هو الفنون المدنية، وبامتزاجهما تتجلى الحقيقة، وبافتراقهما تتولد الحيل والشبهات في هذا، والتعصب الذميم في ذلك»[55].

ولا يمكن تجاهل أثر النهضة العلمية التكنولوجية في تنمية الحياة والأحياء وازدهار الحضارة.

المبحث الرابع

أسباب التخلف الحضاري والتراجع الاجتماعي للأمة

إن أسباب التخلف الحضاري والتراجع الاجتماعي —حسب الإمام النورسي ترجع إلى ستة أمراض جعلت أمة الإسلام تقف على أعتاب القرون الوسطى في الوقت الذي طار فيه الغرب نحو المستقبل.

هذه الأمراض هي: اليأس، والكذب (سوء الأخلاق)، وحب العداوة، والجهل بالروابط النورانية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض (العداوة والشقاق)، وسريان الاستبداد، وحصر الهمة في المنفعة الشخصية[56].

يقول الإمام النورسي في موضع متحدثا عن أسباب التراجع الحضاري والتخلف الاجتماعي للأمة: "إن حقيقة الاسلام هي التي ستسود قارات العالم وتستولي عليها.



نعم! إن الاسلام هو الذي سيعتلي عرش الحقائق والمعارف، فلا يكشفها ولا يفتحها إلاّ الإسلام... الأمارات تبدو هكذا..

ذلك لأن الذي حال دون استيلاء الشريعة الغراء استيلاءً تامًا في الماضي -في تلك الصحراء الموحشة والجهل المطبق الذي تربع على عرشه التعصب الذميم، وضرب فيه التقليد أطنابه، في بلاد الجهل المخيم بالسفساف والاستبداد المقيت- أقول إن الذي حال دون هيمنة الشريعة في الماضي هيمنة تامة هي أمور ثمانية، وقد محقت -كذلك الآن تمحق- ثلاث حقائق.

هذه الموانع هي التي أدت إلى كسوف شمس الاسلام.

اما الموانع التي في الأجانب (الأوروبيين) فهي: التقليد والجهل وتعصبهم وسيطرة القسس عليهم.

أما الموانع التي عندنا فهي: الاستبداد المتنوع، وسوء الخلق، والأحوال المضطربة. واليأس الذي تنجم منه العطالة.

اما المانع الثامن، وهو أهم الموانع، والبلاء النازل فهو توهمنا -نحن والأجانب- بخيال باطل؛ وجود تناقض وتصادم بين بعض ظواهر الاسلام وبعض مسائل العلوم"(57).

كما يبين الإمام النورسي أسبابا أخرى لانحطاط المجتمع المسلم وتدنيه حين قال: "إن سبب تأخرنا وتدنينا وسوء أحوالنا إلى الآن ناتج مما يأتي:

1- عدم مراعاة أحكام الشريعة الغراء.

2- تصرفات بعض المداهنين تصرفًا عفويًا.

3- التعصب المقيت في غير محله سواء لدى عالم جاهل أو جاهل عالم!

4- تقليد مساوئ المدنية الأوروبية تقليدًا ببغائيًا -بسوء حظنا أو سوء اختيارنا- مما ولّد تركنا لمحاسن المدنية التي تستحصل بمشكلات ومصاعب"(58).

انطلاقا من هذه النصوص السابقة للنورسي نجمل أهم أسباب التخلف والتراجع الحضاري للأمة في الآتي:

1- الاستبداد.



إن الاستبداد المتعسف لا صلة له بالشريعة الغراء، وإن الشريعة قد أتت لهداية العالم أجمع كي تزيل التحكم الظالم والاستبداد[59].

إن الاستبداد ظلم وتحكم في الآخر، أي المعاملة الكيفية الاعتباطية، أي الجبر بالاستناد إلى القوة، أي الرأي الواحد... المفتوحة أبوابه لتداخل المفاسد، وما هو إلا أساس الظلم، وماحي الإنسانية، وهو الذي دحرج الإنسان المكرَّم إلى أسفل سافلين في السفالة، وهو الذي أوقع العالم الإسلامي في المذلة... وهو الذي أيقظ الأغراض والخصومات... وهو الذي سرى سمه في أعصاب العالم الإسلامي... وهو الذي أوقع الاختلافات المدهشة، وهو الذي أدى إلى التراجع والتخلف والركود الحضاري[60].

2- الفساد الأخلاقي.

إن أي أمة من الأمم إن لم يتمسك أهلها بالفضائل والقيم الخُلُقية فإن مصيرها إلى الزوال والانهيار.

ذلك بأن الظلمات التي تعيشها مجتمعاتنا اليوم وأمس سببها الفساد الأخلاقي.

يقول الإمام النورسي: "إن فسادًا أبشع من فساد ياجوج وماجوج قد دب في العالم، وأحاطه بظلمات الإرهاب والفوضى، وعمت الحياة والأخلاق مظالم شنيعة، وإلحاد شنيع، فظهر الفساد في البر والبحر، نتيجة تزلزل السد القرآني العظيم، وهو الشريعة المحمدية الغراء"[61].

ويؤكد النورسي خطورة مرض سوء الأخلاق ومخالفة القيم الخلقية الدينية في قوله: "إن أعداءنا ليسوا الأجانب. وإنما الذي أردانا إلى هذا الوضع وحال بيننا وبين إعلاء كلمة الله هو مخالفتنا للشريعة الغراء نتيجة جهلنا بها، وسوء الأخلاق وسوء المعاملات والاختلاف الذي أنتج الأغراض الشخصية والنفاق"[62].

3- الترف.

الترف من السلوكات الخطيرة التي حذر منها القرآن الكريم وبين عاقبة المترفين ومكانتهم الوضيعة عند الله تعالى والتي يجب أن يعتبر منها الناس عندما يقرأون قصصهم ويتمعنوا في هذا الصنف من الناس –أي المترفون– وما جنوه على أنفسهم من الضياع وتنكب الصراط المستقيم، ثم ما جرّوا إلى أقوامهم ومجتمعاتهم من العقاب والدمار بسبب ما اتصفوا به[63].

يقول مؤرخنا الحكيم عبد الرحمن بن خلدون –رحمه الله–:"فالتّرف مفسد للخلق بما يحصل في النّفس من ألوان الشّرّ والسّفسفة وعوائدها، فتذهب منهم خلال الخير الّتي كانت علامة على الملك ودليلا عليه، ويتّصفون بما يناقضها من



خلال الشّر؛ فيكون علامة على الإدبار والانقراض، بما جعل الله من ذلك في خليقته، وتأخذ الدّولة مبادئ العطب، وتتضعضع أحوالها، وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضى عليها"(64).

إذن فشهوة الترف من أهم أسباب السقوط الحضاري والتراجع الاجتماعي بما ينتج عنه من آثار مدمرة للمجتمعات.

وفي هذا يقول الإمام بديع الزمان: "والآن! ندرك لم أعرض العالم الإسلامي عن المدنية الحاضرة، ولم يقبلها، ولم يدخل المسلمون فيها بإرادتهم. إنها لا تنفعهم، بل تضرهم، لأنها كبلتهم بالأغلال، بل صارت سما زعافا للإنسانية بدلا من أن تكون لها ترياقا شافيا، إذ ألقت ثمانين بالمائة من البشرية في شقاء، لتعيش عشرة بالمائة منها في سعادة مزيفة، أما العشرة الباقية فهم حيارى بين هؤلاء وهؤلاء.

وتتجمع الأرباح للتجارة بأيدي أقلية ظالمة، بينما السعادة الحقة، هي في إسعاد الجميع، أو في الأقل أن تصبح مبعث نجاة الأكثرية.

والقرآن الكريم النازل رحمة للعالمين، لا يقبل إلا طرازا من المدنية التي تمنح السعادة للجميع أو الأكثرية، بينما المدنية الحاضرة قد أطلقت الأهواء والنوازع من عقالها، فالهوى حر طليق طلاقة البهائم، بل أصبح يستبد، والشهوة تتحكم، حتى جعلتنا الحاجات غير الضرورية في حكم الضرورية، وهكذا محيت راحة البشرية.

إذ كان الإنسان في البداوة محتاجا إلى أشياء أربعة، بينما أفقرته المدنية الحاضرة الآن، وجعلته في حاجة إلى مائة حاجة وحاجة، حتى لم يعد السعي الحلال كافيا لسد النفقات، فدفعت المدنية البشرية إلى ممارسة الخداع، والانغماس في الحرام، ومن هنا فسدت أسس الأخلاق"(65).

4- اليأس.

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه الحكيم: ﴿وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:87].

إن من أخطر الأمراض التي أصابت الأمة المسلمة والمجتمعات المسلمة هو مرض اليأس، فما تمر به الأمة اليوم من أزمات، من قتل وتشريد وفقر وظلم وجور هو نتاج تكالب الأمم عليها، إذ جعلها أمة يائسة، وكان لهذا اليأس الأثر الكبير في تخلفها وتراجعها واستسلامها للواقع المرير، قال النورسي: "اعلموا أن اليأس مانع كل كمال"(66).



5- الذنوب والمعاصي وجحود النعم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الرعد: من الآية 11]. أي "﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة والإحسان ورغد العيش ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها فيسلبهم الله عند ذلك إياها"(67).

وهكذا فإن نعم الله تعالى على الأمم والجماعات منوطة ابتداء ودواما بأخلاق وقيم وصفات وعقائد وعوائد وأعمال تقتضيها. فما دامت هذه الشؤون لاصقة بأنفسهم متمكنة منها كانت تلك النعم ثابتة بثباتها، ولم يكن الرب الكريم لينتزعها منهم انتزاعا بغير ظلم منهم ولا ذنب، فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والقيم والأخلاق، وما يترتب عليها من محاسن الأعمال، غيَّر الله عندئذ ما بأنفسهم، وسلب نعمته منهم، فصار الغني فقيرا، والعزيز ذليلا، والقوي ضعيفا، والنورانية ظلمة. هذا هو الأصل المطرد في الأقوام والأمم(68).

وجحود نعم الله تعالى يكون بالإسراف في الزينة، وباقتراف الفواحش والآثام والبغي على الناس، وبالكذب على الله بإرهاق الأمة بما لم يشرعه لها من الأحكام... فما من أمة من الأمم العزيزة السعيدة ارتكبت هذه الضلالات والمفاسد المبيدة، إلا سلبها الله سعادتها وعزها، وسلط عليها من استذلها وسلب ملكها(69).

وهذا ما أكده الإمام بديع الزمان في قوله: "إن النعمة الإلهية العظمى في انتصاركم هذا تستوجب الشكر، لتستمر وتزيد، إذ إن لم تُستقبل النعمة بالشكر تزول وتنقطع"(70). وفي قوله: "إن أهم سبب لهذه المصيبة هو العصيان النابع من كفران النعمة وعدم الشكر وعدم تقدير النعمة الإلهية حق قدرها"(71).

6- عدم تطبيق الشريعة وتدهور القيم الدينية.

إن من أسباب الفوضى التي حلت بكثير من المجتمعات وأرهقت الحضارات وشيّبتها، سببين:

"الأول: فسح المجال للسفاهة وتلبية شهوات النفس، بعدم جعل الدين والفضيلة دستورًا للمدنية.

الثاني: التباين الاجتماعي الرهيب في الحياة المعاشية، الناشئ من فقدان التراحم الناجم من حب الشهوات ومجافاة الدين"(72).

ذلك بأن "التهاون في تطبيق الشريعة يفضي إلى ضعف الأمة، والضعف يُغري العدو فيكم ويشجعه عليكم ولا يوقفه عند حده"(73).

بل "إن إصابة الأمة في قلبها إنما هو من ضعف الدين ولن تنعم بالصحة إلا بتقوية الدين"(74).



7– الخلاف والشقاق والعداوة والبغضاء بين المسلمين.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[الأنفال: 46]. ذكر الله تعالى بعد الأمر بطاعته ورسوله ρ النهي عن التنازع، والنهي عن التنازع يكون أولا بالنهي عن الخلاف المذموم، فإن الخلاف يؤدي إلى النزاع، والنزاع يؤدي إلى التنابذ والتدابر، وأن يكون كل فريق جمعا منفصلًا عن الآخر، ويكون بأسهم بينهم شديدًا، وإن الأثر الواضح للتنازع هو الفشل؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ الفاء للسببية تدل على أن ما بعدها سبب لما قبلها، أي أنه بسبب ذلك التنازع يكون الفشل، والفشل هو العجز، بحيث كان النزاع كان العجز عن عمل جماعي؛ لأن العمل الجماعي يجب أن تتضافر فيه القوى، ويكون كل جزء من الجماعة متعاونا مع الجزء الآخر، فتتحد القوى، وتتلاقى نحو هدف معين يجمعها.

وإنه وراء الفشل ذهاب القوة، ويطمع فيهم الطامعون، ولذا قال تعالى: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي قوتكم[75].قال الإمام النورسي رحمه مبينا الآثار السلبية للخلاف المذموم والنزاع والشقاق: إن من أهم أسباب تأخرنا في مضمار المدنية بعد الاستبداد، هو تباين الأفكار الذي هز أساس الأخلاق الإسلامية وفرق اتحاد الأمة، وأخرنا عن ركب الحضارة؛ لأن أحدهم يكفر الآخر ويضلله، بينما يعد الآخر الأول جاهلا لا يوثق به. وهكذا ساد الإفراط والتفريط. وعلاج هذا هو الصلح النابع من توحيد الأفكار، وربط العلاقات ووصلها حتى يوصل إلى نقطة الاعتدال، فيتصافح الجميع ويتفقوا جميعا لئلا يخلّوا بنظام الرقي[76].

ثم يقول كاشفا عن النتائج الوخيمة للحسد والعداوة والعناد: "إن ما يسببه التحايز والعناد والحسد من نفاق وشقاق في أوساط المؤمنين، وما يوغر في صدورهم من حقد وغل وعداء، مرفوض أصلًا. ترفضه الحقيقة والحكمة، ويرفضه الإسلام الذي يمثل روح الإنسانية الكبرى. فضلًا عن أن العداء ظلم شنيع يفسد حياة البشر: الشخصية والاجتماعية والمعنوية، بل هو سم زعاف لحياة البشرية قاطبة"[77].

إن الإخلاص واسطة الخلاص ووسيلة النجاة من العذاب، فالعداء والعناد يزعزعان حياة المؤمن المعنوية فتتأذى سلامة عبوديته لله، إذ يضيع الإخلاص!. ذلك بأن المعاند الذي ينحاز إلى رأيه وجماعته يروم التفوق على خصمه حتى في أعمال البر التي يزاولها. لا يوفق توفيقًا كاملًا إلى عمل خالص لوجه الله تعالى. ثم إنه لا يوفق أيضًا إلى العدالة، إذ يرجح الموالين لرأيه الموافقين له في أحكامه ومعاملاته على غيرهم.. وهكذا يضيع أساسان مهمان لبناء البر "الإخلاص والعدالة" بالخصام والعداء[78].



ثم يخاطب أهلا الإيمان داعيا إياهم إلى الأخوة والمحبة: "أيها المؤمنون! إن كنتم تريدون حقًا الحياة العزيزة، وترفضون الرضوخ لأغلال الذل والهوان، فأفيقوا من رقدتكم، وعودوا إلى رشدكم، وادخلوا القلعة الحصينة المقدسة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10] وحصنوا أنفسكم بها من أيدي أولئك الظلمة الذين يستغلون خلافاتكم الداخلية.. وإلا تعجزون عن الدفاع عن حقوقكم بل حتى عن الحفاظ على حياتكم"[79].

خاتمة:

بعد هذه الرحلة الماتعة مع رسائل النور وفي ضوئها أختم هذا البحث بأهم النقاط المستفادة من هذه الجولة، أوجزها فيما يأتي:

– إن الفكر السنني من العلوم التي قصر فيها المسلمون المتأخرون، لذلك يبقى العبء الأكبر والواجب الثقيل على أهل الذكر من علماء الأمة ليعيدوا المسلمين إلى السنن التي تخضع لها سائر المخلوقات والكائنات، ويبينوها لهم حتى يقوموا بتسخيرها ويعملوا بمقتضياتها.

– إن الإمام النورسي كان من أكثر العلماء تعمقا في الفكر السنني دراسة واستنباطا وتطبيقا.

– إن اهتمام الإمام النورسي بالسنن الإلهية يأتي من فهمه بأن إحياء الأمة والنهوض بأمانة الاستخلاف في الأرض لا يتحقق إلا بتسخير السنن الكونية، والسير على مقتضى السنن الاجتماعية.

– إن السنن الإلهية هي أحكام نواميس الربوبية ودساتير الشريعة الفطرية الكونية التي تخص تنظيم شؤون الكون والحياة.

– إن الطبيعة بما فيها ومن فيها خاضعة لله تعالى لا تخرج عن أمره وإرادته، فهي نقش لا نقّاش، قابلة للانفعال لا فاعلة، قانون لا قدرة، شريعة فطرية لا حقيقة خارجية.

– إن التغيير الاجتماعي والشهود الحضاري للأمة المسلمة يقتضي التمسك بسنن النهوض والإحياء وهي: الإيمان الصادق، والإخلاص لله تعالى، والتأسي بسيد الخلق ρ، والتربية الروحية، والتحلي بمكارم الأخلاق والآداب الإسلامية، والأخوة الإسلامية، وبناء الأسر على دعائم ربانية، والنهضة العلمية على أسس عقلية ودينية صحيحة ترفع الغبن والتعاسة عن الإنسانية، والتدرج، والقيام لله بالقسط والعدل.

– إن تأخر المجتمعات المسلمة وتدنيها وركودها، لم يكن من قبيل الصدفة أو العبث، وإنما جزاء وفاقا على تنكب المسلمين سنن النهوض، وسيرهم في طريق سنن السقوط والتراجع والتخلف، وهي: الاستبداد السياسي والظلم



الاجتماعي، والفساد الأخلاقي، والترف، والذنوب والمعاصي، وكفران النعم، واليأس، وعدم تطبيق الشريعة، وتدهور القيم الدينية، والحرب التدميرية، والعداوة والبغضاء، والشقاق والتنازع بين المسلمين...

- إن الفكر السنني يحتاج إلى عقول واعبة وأقلام واعية لتزهره وتدونه حتى تخدم الأمة في ظروفها الراهنة؛ فتدرك سر الانتصار في الماضي وتبصر الحاضر وتستشرف المستقبل.

وبهذا يتضح البعد السنني في رسائل النور للإمام بديع الزمان النورسي، مفهوما ومنهجا واستنباطا وتطبيقا.

ثبت المصادر والمراجع

- **بديع الزمان سعيد النورسي سلسلة رسائل النور**:

1. إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق: إحسان قاسم صالح، ط3: 2002، شركة سوزلر، مصر.
2. سيرة ذاتية، النورسي، إعداد وترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركز سوزلر، مصر.
3. الشعاعات، بديع الزمان النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط3: 1414هـ/1993م، شركة سوزلر للنشر، القاهرة.
4. صيقل الإسلام، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط3: 2002، شركة سوزلر، مصر.
5. الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط2: 1412هـ/1992م، وط4: 2004، نشر دار "سوزلر"، القاهرة.
6. اللمعات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، مصر.
7. المثنوي العربي، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، ط1: 1415هـ/1995م، شركة سوزلر للنشر.
8. الملاحق في فقه دعوة النور، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط3: 1999، سوزلر، مصر.

- **دراسات عن رسائل النور**:

9. الأنصاري فريد، مفاتيح النور في مفاهيم رسائل النور، ط1: 1431هـ/2010م، دار النيل، مصر.
10. الروكي محمد، "العلم والأخلاق وأثرهما في بناء الإنسان عند النورسي"، مجلة حراء، العدد: 32، السنة الثامنة، سبتمبر-أكتوبر 2012م.
11. محسن عبد الحميد، من أئمة التجديد الإسلامي، ط1: 1407هـ/1968م، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء- المغرب.



12. محسن عبد الحميد، "من معالم التجديد عند النورسي"، مجلة النور للدراسات الحضارية الفكرية، العدد5، يناير 2012.

13. ملال يونس، "التفكير السني عند بديع الزمان النورسي"، مجلة حراء، السنة السابعة، العدد: 30 (مايو-يونيو) 2012.

- **مراجع عامة:**

14. البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت: 256هـ)، صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ρ وسننه وأيامه)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1: 1422هـ، دار طوق النجاة.

15. البزار: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (ت: 292هـ) المسند المنشور باسم البحر الزخار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله وعادل بن سعد وصبري عبد الخالق الشافعي، الطبعة الأولى، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة.

16. بنحمادة سعيد والبركة محمد، فقه التاريخ عند الدكتور فريد الأنصاري: المفهوم والمنهج والقضايا، ط1: 1432هـ/2011م، دار السلام، القاهرة.

17. حسنة، عمر عبيد المنهج السني أفق حضاري متجدد، ط1: 1430هـ/2009م، المكتب الإسلامي، بيروت-عمان،.

18. حسين شرفه، سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، ط1: 1429هـ/2008م، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت-لبنان.

19. ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: 241هـ)، المسند، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط1: 1416هـ/1995م، دار الحديث – القاهرة.

20. خالد فائق العبيدي، القوانين القرآنية للحضارات-دراسة قرآنية لأحداث التاريخ، ط1: 1426هـ/2005م، دار الكتب العلمية، بيروت.



21. ابن خلدون: أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الإشبيلي (ات: 808هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر(تاريخ ابن خلدون)، تحقيق: خليل شحادة، ط2: 1408هـ/1988م، دار الفكر، بيروت.

22. دوفاني سعاد، "الإنسان والقيم عند ابن خلدون"، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، السنة السادسة، العدد: 12، يوليو 2015.

23. رضا: محمد رشيد بن علي القلموني الحسيني (ت: 1354هـ)، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، 1990م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

24. أبو زهرة: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد (ت: 1394هـ)، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي.

25. الغريب رمضان خميس زكي، فقه السنن الربانية ومدى إفادة المسلمين منها قراءة في فكر الإمام محمد عبده، ط1: 1436هـ/2015م، دار المقاصد، مصر.

26. كهوس رشيد، علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، ط1: 1436هـ/2015م، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي- الإمارات العربية المتحدة.

27. محمد عمارة، المنهج الإصلاحي للإمام محمد عبده، ط1: 1430هـ/2009م، دار السلام، مصر.



[1]- "السـنن الإلهية هي إرادة الله الكونية، وأمره الشـرعي، وفعله المطلق، وكلماته التامات، وحكمته في آفاق الكون وتسـلسـل التاريخ، الجارية بالعباد عبر رحلة الأعمال إلى المعاد". رشيد كهوس، علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، ص22.

[2]-سعيد بنحمادة ومحمد البركة، فقه التاريخ عند الدكتور فريد الأنصاري المفهوم والمنهج والقضايا، ص82.

[3]-فريد الأنصاري، مفاتيح النور في مفاهيم رسائل النور، ص198.

[4]- النورسي: الملاحق، ص68. اللمعات، ص:59-65-86-344. صيقل الإسلام، ص463.

[5] النورسي، المثنوي العربي، ص426.

[6] النورسي: المثنوي العربي، ص138، اللمعات، ص: 59، 123، 128، 539..

[7] النورسي، الشعاعات، ص667.

[8]- النورسي، الملاحق، ص184.

[9] -النورسي، الكلمات ، ص471.

[10] - رمضان خميس زكي الغريب، فقه السنن الربانية ومدى إفادة المسلمين منها قراءة في فكر الإمام محمد عبده، ص39.

[11]-رشيد رضا، تفسير المنار، 4/118-119.

[12]- نفسه، 9/482.

[13]- النورسي، الكلمات، ص872.

[14]- النورسي، اللمعات، ص257.

[15]- النورسي، صيقل الإسلام، ص149.

[16]- النورسي، صيقل الإسلام، ص531.

[17]- النورسي، اللمعات، ص257.

[18]-محمد عمارة، المنهج الإصلاحي للإمام محمد عبده، ص76.

[19] -النورسي، اللمعات، ص191-192.

[20]-حسين شرفه، سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، ص107.

[21]- النورسي، الكلمات، ط2، ص704.

[22]- النورسي، اللمعات، ص286.

[23]- النورسي، المثنوي العربي، ص425.

[24]-يونس ملال، "التفكير السنني عند بديع الزمان النورسي"، مجلة حراء، السنة السابعة، العدد: 30 (مايو-يونيو) 2012، ص12-13.



[25]-النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص29-30.

[26]- النورسي، الكلمات، ص 327.

[27]- النورسي، المثنوي العربي، ص424.

[28] - النورسي، اللمعات، ص280-282.

[29] - النورسي، اللمعات، ص86.

[30]- النورسي، اللمعات، ص514.

[31] – النورسي، الكلمات، ص353.

[32]- انظر: عمر عبيد حسنة، المنهج السنني أفق حضاري متجدد، ص81-82.

[33]- خالد فائق العبيدي، القوانين القرآنية للحضارات، ص149.

[34]- النورسي، صيقل الإسلام، ص22-23.

[35]- النورسي، الشعاعات، ص 135.

[36]- النورسي، الكلمات، ص 289.

[37]- النورسي، الملاحق، ص 145.

[38]-محمد الروكي، العلم والأخلاق وأثرهما في بناء الإنسان عند النورسي، مجلة حراء، العدد: 32، السنة الثامنة، سبتمبر-أكتوبر 2012م، ص15.

[39]- النورسي، الكلمات، ص 373.

[40]- نفسه، ص348.

[41]- نفسه، 343.

[42]- النورسي، الشعاعات، ص666.

[43]- محمد الروكي ، عن العلم والأخلاق وأثرهما في بناء الإنسان عند النورسي، مجلة حراء، ص15.

[44]- النورسي، الكلمات، ص 642.

[45]-أحمد بن حنبل، المسند ، 513/14. قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

[46]- البزار، المسند ، 364/15.

[47]- النورسي، اللمعات، ص141.

[48]- النورسي، صيقل الإسلام، ص: 515.

[49]- النورسي، الشعاعات، ص 228-230.

[50]-محسن عبد الحميد، من معالم التجديد عند النورسي، مجلة النور للدراسات الحضارية الفكرية، العدد5، يناير 2012، ص33.

[51]- ابن خلدون، التاريخ، ص51.

[52]- النورسي، اللمعات، ص 525-526.

[53]- البخاري، الصحيح، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، ح1425.

[54]-محسن عبد الحميد، من أئمة التجديد الإسلامي، ص: 144.

[55]- النورسي، المثنوي العربي، ص14.

[56]- النورسي، صيقل الإسلام، ص23.

[57]- نفسه، ص23.

[58]- نفسه، ص 471.

[59]- نفسه، ص 442.

[60]- النورسي: سيرة ذاتية، ص75، صيقل الإسلام، ص442.



---

(61)- النورسي، سيرة ذاتية، ص330.

(62)- النورسي، صيقل الإسلام، ص532.

(63)-سعاد دوفاني، الإنسان والقيم عند ابن خلدون، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، السنة السادسة، العدد: 12، يوليو 2015، ص54.

(64)- ابن خلدون، التاريخ، ص212.

(65)- النورسي، الكلمات، ص323.

(66)- النورسي، صيقل الإسلام، ص528.

(67)- السعدي، تفسير السعدي، ص414.

(68)- رضا، تفسير المنار، 33/10.

(69)- نفسه، 358/8.

(70)- النورسي، المثنوي العربي، ص200.

(71) - النورسي: الملاحق، ص161، صيقل الإسلام، ص551.

(72) - النورسي، صيقل الإسلام، ص55.

(73)- النورسي، المثنوي العربي، ص204.

(74) - النورسي، صيقل الإسلام، ص532.

(75) -محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، 3150/6.

(76) - النورسي، صيقل الإسلام، ص473.

(77) - النورسي، المكتوبات، ص339.

(78) - نفسه، ص350.

(79) - نفسه، ص350.

